الوسائل المفيدة
للحياة السعيدة

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي

المتوفى سنة ١٣٧٦هـ

رحمه الله

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ

مكتبة التوعية الإسلامية

لإحياء التراث الإسلامي

الناشر
مكتبة التوعية الإسلامية
لإحياء التراث الإسلامي

العنوان : ناصية شارع محمد عبد الهادي
الطالبية ـ الجوهرة
الجيزة

تقـــديم

إن الحمـد لله نحمـده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنـا ومن سيئـات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

أمـــا بعـد : فمما لا شك فيه ولا ريب أن السعادة هي منشود كل إنســـان، ومخطـوب كل ذي حس وعـرفـان، فجميـع النـاس ينشـدون السعادة ويرجونها، فهى غايتهم ومناهم، وهي ديدنهم ونجواهم.

ولكن كيف يُظفر بالمطلوب، ويُتحصل على المرغوب ؟

تفاوتت أفهام الناس فى ذلك، وتغايرت سبلهم فكلٌ فى طريق سالك.

بعضهم يبحث عن السعـادة في جمع المـال، واستحـواذه من كافة الوجوه، ويرى أن السعيد من كثر ماله.

وبـعضهم يبحث عنهـا فى اللهـو واللعب، وشغـل الأوقـات وإضاعتها فيما لا نفع فيه.

وبعضهم يبحث عنها فى ارتكاب المحرمات وارتياد المنكرات، من شرب خمر وزنا وسماع آلات لهو وغناء وغير ذلك.

وبعضهم يبحث عنهـا في ...... وبعضهم ...... الكـل ينشد ويبحث، كثرت همومهم، وعظمت غمومهم، وأشربت بالأحزان قلوبهم.

ولكن كيف الحصول على السعادة ؟

إن الله عز وجل خالق هذا الكون وموجده شاء وقدر أن السعادة لا تكون إلا فى سلوك طريقه واتباع هداه، وأن الشقاء لمن عصاه وأعرض عن ذكره وهداه.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(2).

فهدى الله المؤمنين للسعادة، وحقق لهم طريق الخلاص والنجاة، وجنبهم طريق الضنك والشقاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وهذه الرسالة التى بين يديك قد أوضح فيها مؤلفها، طرق السعادة وسبلها، وبين طرق تلافي الهموم والغموم والأحزان.

فهي على صغر حجمها عظيمٌ نفعها، والحاجة ماسة إليها لكل إنسان، لاسيما فى هذه الأزمان التى كثرت فيها الفتن وعظمت فيها المحن.

---

(1) طه / ١٢٣ - ١٢٧.
(2) النحل / ٩٧.

فنسأل الله الكريم أن ينفع بها، ويأجرَ مؤلفها، ويتغمدَه برحمته، ويرحمنا معه، ويسلك بنا طريق السعادة، ويجنبنا طريق الشقاء، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

ترجمة موجزة للمؤلف(★)

هو الشيخ العلامة الفقيه الأصولي المفسر الورع الزاهد، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي التميمي .

ولد في «عُنَيْزَة» بالقصيم سنة ١٣٠٧هـ ، وتوفيت أمه وهو ابن أربع سنين، ثم توفي والده وهو ابن سبع سنين، وكان والده عالماً وإمام مسجد، ومن الملازمين للعبادة .

ولما توفي والده صار يتيم الأبوين، وكانت زوجة والده تحنو عليه وتوليه عناية فائقة، وكذلك أخوه حمد .

وقد نشأ رحمه الله نشأة صلاح وتقى، فكان منذ نشأته صالحاً مثاراً للإعجاب وأنظار الناس محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة .

طلبه للعلم وشيوخه :

وكان منذ حداثة سِنِّه حريصاً أشد الحرص على طلب العلم وتحصيله، صارفاً أوقاته في ذلك .

(★) مصادر الترجمة :

١ ـ علماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبد الله البسام ٢/٤٢٢ .

٢ ـ روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين للشيخ محمد بن عثمان القاضي ٢/٢١٩ .

٣ ـ مشاهير علماء نجد للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ /٣٩٢ .

٤ ـ آخر كتاب المختارات الجلية لابن سعدي، طبعة المدني، ترجمة بقلم الشيخ سليمان بن عبد الكريم السناني .

٥ ـ علماء آل سليم وتلامذتهم للشيخ صالح بن سليمان العمري ٢/٢٩٥ .

فحفظ القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره، ثم قرأ في علم الحديث والمصطلح والأصول والفروع والتفسير، وأخذ العلم عن مشائخ كثيرين منهم : الشيخ إبراهيم بن حمد الجاسر والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، والشيخ صالح بن عثمان القاضي، والشيخ صعب التويجري، والشيخ محمد محمود الشنقيطي، والشيخ علي بن محمد السناني، والشيخ محمد بن عبد العزيز المانع وغيرهم.

وكان مشائخه كلهُم معجبين بفرط ذكائه ونبله واستقامته، حتى إن زملاءه لما رأوا تفوقه عليهم ونبوغه، تتلمذوا عليه، وصاروا يأخذون العلم عنه وهو في سن مبكر.

وقد كان له عناية فائقة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، فقرأ أكثرها وتأثر بهما، وكان يثني عليهما ويوصي بقراءة كتبهما وله قصيدة طويلة في ذلك منها :

يا طالباً لِعلومِ الشَّرْعِ مُجْتَهِداً ... يَبغي انكشافَ الحقِ والعِرفانِ
احرِصْ على كتبِ الإمامينَ اللذيـ ... ـن هما المحكُّ لهذه الأزمان
العالِمَيْنِ العامِلَيْنِ الحافِظَيـ ... ـنِ المُعْرِضَيْنِ عن الحُطامِ الفاني

إلى أن قال :

أعني به شيخَ الورىٰ وإمامَهم ... يُعزىٰ إلىٰ تيميةَ الحرَّاني
والآخر المدعوّ بابن القيم ... بحرِ العلومِ العالِمِ الرَّبّاني
فهما اللذانِ أودعا في كتبهم ... غُرَرَ العلومِ كثيرةِ الألوانِ
فيها الفوائدُ والمسائلُ جُمِّعت ... من كل فاكهةٍ بها زوجانِ

مؤلفاتـــه :

بلغت مؤلفاته رحمه الله . نيفاً وأربعين مؤلّفاً منها :

١ ــ تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان .

٢ ــ تيسير اللطيف المنان فى خلاصة تفسير القرآن .

٣ ــ الدرة البهية شرح القصيدة التائية .

٤ ــ التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة .

٥ ــ الحق الواضح المبين فى شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية .

٦ ــ توضيح الكافية الشافية .

٧ ــ تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمى فى أغلاله .

٨ ــ طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول .

٩ ــ الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة فى العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة .

١٠ ــ بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار فى شرح جوامع الأخبار .

١١ ــ الوسائل المفيدة للحياة السعيدة(★) .

١٢ ــ المختارات الجلية من المسائل الفقهية .

١٣ ــ منهج السالكين وتوضيح الفقه فى الدين .

١٤ ــ الخطب المنبرية على المناسبات العصرية .

(★) وهي هذه الرسالة التى بين يديك ، وسبق أن طبعت عدة مرات ، وقد اعتنيت بهذه الطبعة ، فعزوت الآيات إلى أماكنها ، وخرجت الأحاديث باختصار ، وعلقت على مواطن يسيرة منها ، وأسأل الله الكريم أن يجعل عملي خالصاً لوجهه إنه سميع مجيب .

وغيرها من الكتب والرسائل المتنوعة. وجميع مؤلفاته مطبوعة إلا اليسير منها، ومعظمها طبع فى حياته رحمه الله.

وفـــاته :

كان قد أُصيب قبل وفاته بخمس سنوات تقريباً بمرض ضغط الدم وتصلب الشرايين، فسافر للعلاج فى لبنان، ثم عاد بعد شهر وقد شفاه الله، وبعد عودته إلى "عُنَيْزَة" باشر فيها التدريس والإفتاء والخطابة وتصنيف الكتب، فعاوده المرض مرة أخرى.

وفى ليلة الأربعاء الموافق ١٣٧٦/٦/٢٢هـ، أصيب بإغماء شديد لازمه أكثر يومه، حتى توفاه الله قرب طلوع الفجر من ليلة الخميس ١٣٧٦/٦/٢٣هـ، ودفن فى مقبرة الشهوانية بعنيزة فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

وكتبـه :

عبد الرزاق العباد

المدينة فى ١٤٠٧/٧/٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له الحمد كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وسلم.

أما بعد: فإن راحة القلب وطمأنينته وسروره، وزوال همومه وغمومه، هو المطلب لكل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج، ولذلك أسبابٌ دينيةٌ، وأسبابٌ طبيعيةٌ وأسبابٌ علميةٌ، ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين، وأما من سواهم فإنها وإن حصلت لهم من وجهٍ وسبب يجاهد عقلاؤ هم عليه فاتتهم من وجه أنفع وأثبت وأحسن حالاً ومآلا.

ولكني سأذكر برسالتي هذه ما يحضرني من الأسباب لهذا المطلب الأعلىٰ، الذي يسعى له كل أحد.

فمنهم من أصاب كثيراً منها فعاش عيشةً هنيئةً، وحيي حياةً طيبةً، ومنهم من أخفق فيها كلها فعاش عيشة الشقاء وحيي حياة التعساء، ومنهم من هو بين بين، بحسب ما وفق له، والله الموفق المستعان به على كل خير، وعلى دفع كل شر.

(فصـــل)

وأعظم الأسبـاب لذلـك وأصلهـا وأُسُّهـا هو الإيـمان والعمـل الصالح. قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

فأخبر تعالى، ووعد من جمع بين الإيـمان والعمـل الصـالح، بالحياة الطيبة فى هذه الدار، وبالجزاء الحسن فى هذه الدار وفى دار القرار.

وسبب ذلـك واضـح، فإنّ المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة، معهم أصول وأسس يتلقـون فيهـا جميـع ما يرد عليهم من أسباب السُّرور والابتهاج، وأسباب القلق والهمّ والأحزان.

يتلقون المحاب والمسار بقبول لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفـع، فإذا استعملوهـا على هذا الوجه، أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع فى بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أموراً عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التى هذه ثمراتها.

ويتلقـون المكـاره والمضـار والهم والغم، بالمقـاومـة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم عنه بُدّ وبـذلـك يحصـل لهم من آثـار المكـاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقـوة، ومن الصـبر واحتسـاب الأجـر والثواب أموراً عظيمة تضمحل

---

(١) النحل / ٩٧.

معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه.

كما عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا في الحديث الصحيح أنه قال: «عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[1]. فأخبر صلى الله عليه وسلم أن المؤمن يتضاعف غنمه وخيره وثمرات أعماله في كل ما يطرقه من السرور والمكاره.

لهذا تجد اثنين تطرقهما نائبة من نوائب الخير أو الشر فيتفاوتان تفاوتاً عظيماً في تلقيها، وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالح.

هذا الموصوف بهذين الوصفين يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصبر وما يتبعهما، فيحدث له السروز والابتهاج، وزوال الهم والغم والقلق، وضيق الصدر، وشقاء الحياة، وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار.

والآخر يتلقى المحاب بأشر وبطر وطغيان، فتنحرف أخلاقه ويتلقاها كما تتلقاها البهائم بجشع وهلع، ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب، بل مشتته من جهات عديدة، مشتت من جهة خوفه من زوال محبوباته، ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالباً، ومن جهة أن النفوس لا تقف عند حد، بل لا تزال متشوفة لأمور أخرى، قد تحصل وقد لا تحصل، وإن حصلت على الفرض والتقدير فهو أيضاً قلق من الجهات المذكورة.

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٢٩٥، وأحمد ٤/٣٣٣، والدارمي ٢/٣١٨ من حديث صهيب رضي الله عنه.

ويتلقى المكـــاره بقلق وجـزع وخـوف وضجـر، فلا تسأل عن ما يحدث له من شقـاء الحيـاة، ومن الأمـراض الفكـريـة والعصبيـة، ومن الخـوف الـذي قد يصل به إلى أسوأ الحالات وأفظع المزعجات، لأنه لا يرجو ثواباً، ولا صبر عنده يسليه ويهون عليه.

وكـل هذا مشـاهـد بالتجـربـة، ومثـلٌ واحدٌ من هذا النوع، إذا تدبـرتـه ونـزّلتـه على أحـوال النـاس، رأيت الفـرق العظيم بين المؤمن العـامـل بمقتضىٰ إيـمانه، وبين من لم يكن كذلك، وهو أن الدين يحث غاية الحث على القناعة برزق الله، وبما آتى العباد من فضله وكرمه المتنوع.

فالمؤمن إذا ابتلي بمرض أو فقر، أو نحوه من الأعراض التى كل أحـد عرضـة لها، فإنـه بإيمانه وبما عنده من القناعة والرضى بما قسم الله له، تجده قريـر العـين لا يتطلب بقلبـه أمـراً لم يُقدّر له، ينظر إلى من هو دونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه، وربما زادت بهجته وسروره وراحته على من هو متحصل على جميع المطالب الدنيوية إذا لم يؤت القناعة.

كما تجد هذا الـذي ليس عنـده عمـل بمقتضى الإيمان، إذا ابتلي بشيء من الفقر أو فقد بعض المطالب الدنيوية، تجده غاية فى التعاسة والشقاء.

ومـثـــلٌ آخـــرٌ : إذا حدثت أسبـــاب الخـــوف وألمّت بالإنســـان المزعجات، تجد صحيح الإيمان ثابت القلب، مطمئن النفس، متمكناً من تدبـيره، وتسيـيره لهذا الأمـر الـذي داهمه، بما هو فى وسعـه من فكر وقـول وعمـل، قد وطّن نفسـه لهذا المـزعـج الملم، وهـذه أحـوال تريح الإنسان وتثبت فؤاده.

كما تجد فاقد الإيمان بعكس هذه الحال، إذا وقعت المخاوف انزعج لها ضميره، وتوترت أعصابه، وتشتت أفكاره، وداخله الخوف والرعب، واجتمع عليه الخوف الخارجي، والقلق الباطني الذي لا يمكن التعبير عن كنهه، وهذا النوع من الناس إن لم يحصل لهم بعض الأسباب الطبيعية التى تحتاج إلى تمرين كثير، انهارت قواهم وتوترت أعصابهم، وذلك لفقد الإيمان الذي يحمل على الصبر، خصوصاً فى المحال الحرجة، والأحوال المحزنة المزعجة.

فالبر والفاجر، والمؤمن والكافر يشتركان فى جلب الشجاعة الاكتسابية، وفى الغريزة التى تلطف المخاوف وتهونها، ولكن يتميز المؤمن بقوة إيمانه وصبره وتوكله على الله واعتماده عليه واحتسابه لثوابه أموراً تزداد بها شجاعته، وتخفف عنه وطأة الخوف وتهون عليه المصاعب، كما قال تعالى :

﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون﴾(١)، ويحصل لهم من معونة الله ومعينه الخاص ومدده ما يبعثر المخاوف.

وقال تعالى : ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾(٢).

ومن الأسباب التى تزيل الهم والغم والقلق، الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب

---

(١) النساء / ١٠٤.
(٢) الأنفال / ٤٦.

لثوابه فيهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى :

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَو إِصلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابتغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عظيماً﴾(1) .

فأخبر تعالى أن هذه الأمور كلها خير ممن صدرت منه، والخير يجلب الخير، ويدفع الشر، وأن المؤمن المحتسب يؤتيه أجراً عظيماً ومن جملة الأجر العظيم زوال الهم والغم والأكدار ونحوها .

(1) النساء / ١١٤ .

(فصـــــل)

ومن أسبـاب دفـع القلق النـاشيء عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكـدرات : الاشتغـال بعمـل من الأعـمال، أو علم من العلوم النافعة، فإنها تلهى القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه، وربـما نسى بسبب ذلـك الأسباب التى أوجبت له الهم والغم، ففرحت نفسه، وازداد نشاطه، وهذا السبب أيضاً مشترك بين المؤمن وغيره.

ولكن المؤمن يمتـاز بإيمانه وإخلاصه واحتسابه فى اشتغاله بذلك العلم الـذي يتعلمـه أو يعلمه، ويعمل الخير الذي يعمله إن كان عبادة فهو عبادة، وإن كان شغلا دنيوياً أو عادة دنيوية أصحبها النية الصالحة، وقصد الاستعانة بذلك على طاعة الله، فلذلك أثره الفعال فى دفع الهم والغمـوم والأحـزان، فكم من إنسـان ابتـلي بالقلق ومـلازمـة الأكدار، فحلت به الأمـراض المتنـوعة فصار دواؤه الناجح، نسيان السبب الذي كدره وأقلقه واشتغاله بعمل من مهماته، وينبغي أن يكون الشغل الذي يشتغـل فيـه مما تأنس به النفس وتشتـاقـه، فإن هذا أدعى لحصول هذا المقصود النافع والله أعلم.

ومما يدفع به الهم والقلق : اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وقطعه عن الاهتمام فى الوقت المستقبل، وعن الحزن على الوقت الماضى، ولهذا استعاذ النبى صلى الله عليه وسلم من الهم والحزن(١).

---

(١) كما فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال».
أخرجه البخاري ١١/١٧٨، وأحمد ٣/٢٢٠، وأبو داود ٢/٩٠، والترمذي ٥/٥٢٠، والنسائي ٨/٢٥٧.

فالحـزن على الأمـور الماضية التى لا يمكن ردها ولا استدراكها، والهم الذي يحدث بسبب الخوف من المستقبل، فيكون العبدُ ابنَ يومه، يجمـع جده واجتهـاده فى إصـلاح يومـه ووقتـه الحاضر، فإنّ جمْع القلب على ذلك يوجبُ تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهم والحزن.

والنبى صلى الله عليه وسلم إذا دعا بدعاء أو أرشد أمته إلى دعاء فهـو يحث مع الاستعـانـة بالله والطمع فى فضله على الجد والاجتهاد فى التحقق لحصـول ما يدعـو لحصـوله، والتخلي عما كان يدعو لدفعه، لأن الدعاء مقارن للعمل، فالعبد يجتهد فيما ينفعه فى الدين والدنيا، ويسأل ربه نجاح مقصده، ويستعين به على ذلك.

كما قال صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجـز، وإذا أصـابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنّ "لو" تفتح عمل الشيطان»[1].

فجمـع صلى الله عليـه وسلم بين الأمـر بالحـرص على الأمـور النـافعـة فى كل حال، والاستعـانـة بالله وعـدم الانقياد للعجز الذي هو الكسـل الضـار، وبـين الاستسـلام للأمـور الماضية النافذة، ومشاهدة قضاء الله وقدره.

وجعـل الأمـور قسمـين: قسماً يمكن العبد السعي فى تحصيله أو تحصيـل ما يمكن منـه، أو دفعـه أو تخفيفـه فهـذا يبديْ فيه العبد مجهوده ويستعين بمعبوده.

(1) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٥٢، وأحمد ٢/ ٣٦٦، وابن ماجه ١/ ٣١. من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وقسماً لا يمكن فيه ذلك، فهذا يطمئن له العبد ويرضى ويسلم، ولا ريب أن مراعاة هذا الأصل سبب للسرور وزوال الهم والغم.

(فصـــــل)

ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته الإكثار من ذكر الله ، فإن لذلك تأثيراً عجيباً فى انشراح الصدر وطمأنينته وزوال همه وغمه ، قال تعالى :

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(١) .

فلذكر الله أثر عظيم فى حصول هذا المطلوب لخاصيته ، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره .

وكذلك التحدث بنعم الله الظاهرة والباطنة ، فإن معرفتها والتحدث بها يدفع الله به الهم والغم ، ويحث العبد على الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها حتى ولو كان العبد فى حالة فقر أو مرض أو غيرهما من أنواع البلايا ، فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه التى لا يحصى لها عد ولا حساب ، وبين ما أصابه من مكروه ، لم يكن للمكروه إلى النعم نسبة .

بل المكروه والمصائب إذا ابتلى الله بها العبد ، وأدى فيها وظيفة الصبر والرضى والتسليم ، هانت وطأتها ، وخفت مؤنتها ، وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها ، والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضى ، يدع الأشياء المرة حلوة ، فتنسيه حلاوة أجرها مرارة صبرها .

ومن أنفع الأشياء فى هذا الموضع استعمال ما أرشد إليه النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح حيث قال :

«انظروا إلى مَنْ هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو

---

(١) الرعد / ٢٨ .

فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[1].

فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل، رآه يفوق قطعاً كثيراً من الخلق فى العافية وتوابعها، وفى الرزق وتوابعه، مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد أعطاه خيراً كثيراً، ودفع عنه شروراً متعددة، ولاشك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور.

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٢٧٥، وأحمد ٢/٢٥٤، والترمذي ٤/٦٦٦، وابن ماجه ٢/١٣٨٧ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(فصـــــل)

ومن الأسبـاب المـوجبـة للسـرور وزوال الهم والغم : السعي فى إزالـة الأسبـاب الجالبة للهموم ، وفى تحصيل الأسباب الجالبة للسرور، وذلك بنسيان ما مضى عليه من المكاره التى لا يمكنه ردها ، ومعرفته أن اشتغال فكره فيها من باب العبث والمحال ، وأن ذلك حمق وجنون .

فيجـاهـد قلبـه عن التفكـر فيها ، وكذلك يجاهد قلبه عن قلقه لما يستقبله ، مما يتوهمه من فقر أو خوف ، أو غيرهما من المكاره التى يتخيلها فى مستقبل حياته . فيعلم أن الأمور المستقبلة مجهول ما يقع فيها من خير وشر، وآمال وآلام ، وأنها بيد العزيز الحكيم ، ليس بيد العباد منها شيء إلا السعى فى تحصيـل خيراتهـا ، ودفـع مضـراتهـا ، ويعلم العبد أنه إذا صرف فكـره عن قلقـه من أجـل مستقبـل أمـره ، واتكـل على ربـه فى إصـلاحـه ، واطمأن إليـه فى ذلـك إذا فعـل ذلك اطمأن قلبه وصلحت أحواله ، وزال عنه همه وقلقه .

ومن أنفـع ما يكـون فى ملاحظـة مستقبـل الأمـور استعـمال هذا الدعاء الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو به :

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي فى كل خير ، والموت راحة لي من كل شر»(١) .

وكـذلـك قولـه : «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت»(٢) .

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٠٨٧ من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد ٥/٤٣ ، وأبو داود ٤/٣٢٤ من حديث أبي بكرة رضى الله عنه . وحسنه العلامة الألباني حفظه الله ـ انظر صحيح الجامع ٣/١٤٦ ، والكلم الطيب لابن تيمية بتحقيق الألباني /٧٣ .

فإذا لهج العبد بهذا الدعاء الذي فيه صلاح مستقبله الديني والدنيوي بقلب حاضر، ونية صادقة، مع اجتهاده فيما يحقق ذلك، حقق الله له ما دعاه ورجاه، وعمل له وانقلب همه فرحاً وسروراً[1]

(١) ومن الأدعية النافعة في ذلك :

أ ــ حديث ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم». أخرجه البخاري ١١/١٤٥، ومسلم ٤/٢٠٩٢.

ب ــ وحديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماضى فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هولك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همى ــ إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً». أخرجه أحمد ١/٣٩١، والحاكم ١/٥٠٩ وغيرهما.

قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠/١٣٦ (رواه أحمد وأبويعلى والبزار إلا أنه قال: وذهاب غمى مكان همي، والطبراني، ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح غير أبى سلمه الجهنى وقد وثقه ابن حبان) ا.هـ. وصححه الألبانى فى تحقيقه للكلم الطيب /٧٤

(فصـــــل)

ومن أنفع الأسباب لزوال القلق والهموم إذا حصل على العبد من النكبـات : أن يسعى فى تخفيفهـا بأن يقدر أسوأ الاحتمالات التي ينتهي إليها الأمر، ويوطن على ذلك نفسه، فإذا فعل ذلك فليسع إلى تخفيف ما يمكن تخفيفـه بحسب الإمكـان فبهـذا التوطين وبهذا السعي النافع، تزول همومـه وغمـومـه، ويكون بدل ذلك السعي فى جلب المنافع، وفى دفع المضار الميسورة للعبد.

فإذا حلت به أسبـاب الخـوف، وأسباب الأسقام، وأسباب الفقر والعـدم لما يحبـه من المحبـوبـات المتنوعة، فليتلق ذلك بطمأنينة وتوطين للنفس عليهـا، بل على أشـد ما يمكن منهـا فإن توطـين النفس على احتمال المكـاره، يهونهـا ويـزيـل شدتهـا، وخصـوصـاً إذا أشغـل نفسه بمدافعتها بحسب مقدوره.

فيجتمع فى حقه توطين النفس مع السعي النافع الذي يشغل عن الاهتمام بالمصائب، ويجاهد نفسه على تجديد قوته المقاومة للمكاره، مع اعتـمـاده فى ذلـك على الله، وحسن الثقـة به، ولاريب أن لهذه الأمـور فائـدتهـا العظمى فى حصـول السـرور وانشـراح الصدور، مع ما يؤمله العبـد من الثـواب العـاجل والآجل، وهذا مشاهد مجرب، ووقائعه ممن جربه كثيرة جداً.

(فصـــــل)

ومن أعظم العـــلاجـات لأمـراض القلب العصبيـة ، بل وأيضـاً للأمـراض البـدنيـة : قوة القلب وعـدم انـزعـاجـه وانفعـالـه للأوهام والخيـــالات التى تجلبهـــا الأفكـار السيئـة ، لأن الإنسـان متى استسلم للخيـالات ، وانفعـل قلبه للمؤ ثرات من الخوف من الأمراض وغيرها ، ومن الغضب والتشـوش من الأسبـاب المؤلمة ، ومن توقع حدوث المكاره وزوال المحـــاب ، أوقعـه ذلـك فى الهمـوم والغمـوم والأمـراض القلبيـة والبدنية ، والانهيار العصبي الذي له آثاره السيئة ، التى قد شاهد الناس مضارها الكثيرة .

ومـتى اعتمـــد القلب على الله ، وتـــوكـــل عليـــه ، ولم يستسلم للأوهـام ، ولا ملكتـه الخيـالات السيئـة ، ووثق بالله وطمـع فى فضله ، انـدفعت عنـه بذلـك الهمـوم والغمـوم ، وزالت عنـه كثير من الأسقام البـدنيـة والقلبيـة ، وحصــل للقلب من القـوة والانشـراح والسرور ما لا يمكن التعبير عنه .

فكم ملئت المستشفيات من مرضى الأوهام والخيالات الفاسدة ، وكم أثـــرت هذه الأمـــور على قلوب كثـــير من الأقـويـاء ، فضـلا عن الضعفـاء ، وكم أدت إلى الحمق والجنـون ، والمعافى من عافاه الله ووفقه لجهـاد نفســه لتحصيل الأسباب النافعة المقوية للقلب ، الدافعة لقلقه ، قال تعـالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1] . أي كافيه جميع ما يهمه من أمر دينه ودنياه .

(١) الطلاق / ٣ .

فالمتوكل على الله قوي القلب لا تؤثر فيه الأوهام، ولا تزعجه الحوادث لعلمه أن ذلك من ضعف النفس، ومن الخور والخوف الذي لا حقيقة له، ويعلم مع ذلك أن الله قد تكفل لمن توكل عليه بالكفاية التامة، فيثق بالله ويطمئن لوعده، فيزول همه وقلقه، ويتبدل عسره يسراً، وترحه فرحاً، وخوفه أمنا فنسأله تعالى العافية، وأن يتفضل علينا بقوة القلب وثباته بالتوكل الكامل الذي تكفل الله لأهله بكل خير، ودفع كل مكروه وضير.

(فصـــــل)

وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم : «لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إنْ كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر»(1) فائدتان عظيمتان :

إحـداهما : الإرشـاد إلى معـاملة الـزوجـة والقـريب والصاحب والمعـامـل ، وكـل من بينـك وبينـه علاقة واتصال ، وأنه ينبغي أن توطن نفسـك على أنـه لابـد أن يكـون فيـه عيب أو نقص أو أمر تكرهه ، فإذا وجدت ذلك ، فقارن بين هذا ، وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوة الاتصـال والإبقـاء على المحبـة ، بتـذكـر ما فيـه من المحاسن والمقاصد الخـاصـة والعـامـة ، وبهذا الإغضاء عن المساويء وملاحظة المحاسن ، تدوم الصحبة والاتصال وتتم الراحة وتحصل لك .

الفـائـدة الثـانية : وهى زوال الهم والقلق وبقاء الصفاء والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة ، وحصول الراحة بين الطرفين .

ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبى صلى الله عليه وسلم ، بل عكس القضيـة ، فلحـظ المسـاوىء ، وعمي عن المحـاسن ، فلابـد أن يقلق ، ولابـد أن يتكـدر ما بينـه وبـين من يتصل به من المحبة ، ويتقطع كثير من الحقوق التى على كل منهما المحافظة عليها .

وكثيرٌ من الناس ذوي الهمم العالية ، يوطنون أنفسهم عند وقوع الكـوارث والمزعجات على الصبر والطمأنينة ، ولكن عند الأمور التافهة البسيطة يقلقون ، ويتكدر الصفاء ، والسبب فى هذا أنهم وطنوا نفوسهم

(1) أخرجه مسلم ٢/١٠٩١ ، وأحمد ٢/٣٢٩ . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عند الأمور الكبار، وتركوها عند الأمور الصغار، فضرتهم وأثرت في راحتهم.

فالحازم يوطن نفسه على الأمور القليلة والكبيرة، ويسأل الله الإعانة عليها، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، فعند ذلك يسهل عليه الصغير، كما سهل عليه الكبير، ويبقى مطمئن النفس ساكن القلب مستريحاً.

(فصـــــل)

العـاقـل يعلم أن حيـاتـه الصحيحة، حياة السعادة والطمأنينة، وأنهـا قصـيرة جداً، فلا ينبغي له أن يقصـرهـا بالهم والاسـترسـال مع الأكدار، فإن ذلك ضد الحياة الصحيحة، فيشع بحياته أن يذهب كثير منها نهباً للهموم والأكدار ولا فرق فى هذا بين البر والفاجر، ولكن المؤمن له من التحقق بهذا الوصف الحظ الأوفر، والنصيب النافع العاجل والآجل.

وينبغي أيضـاً إذا أصـابه مكروه أوخاف منه؛ أن يقارن بين بقية النعم الحـاصلة له دينيـة أودنيـويـة، وبـين ما أصـابه من مكروه، فعند المقارنة يتضح كثرة ما هو فيه من النعم، واضمحلال ما أصابه من المكاره.

وكــذلــك يقــارن بين ما يخافـه من حدوث ضرر عليـه، وبـين الاحتمالات الكثيرة فى السلامة منها، فلا يدع الاحتمال الضعيف يغلب الاحتمالات الكثـيرة القوية، وبذلك يزول همه وخوفه، ويقدر أعظم ما يكـون من الاحتـمالات التى يمكن أن تصيبه، فيوطن نفسه لحدوثها إن حدثت، ويسعى فى دفع ما لم يقع منها، وفى دفع ما وقع أو تخفيفه.

ومن الأمـور النـافعـة أن تعـرف أن أذيـة الناس لك وخصوصاً فى الأقــوال السيئـة لا تضـــرك، بل تضـرهم، إلا إن أشغلت نفسـك في الاهتمام بها، وسـوغت لها أن تملك مشـاعـرك، فعنـد ذلـك تضرك كما تضرهم، فإن أنت لم تصغ لها بالاً لم تضرك شيئاً.

واعلم أن حياتك تبع لأفكارك، فإن كانت أفكاراً فيما يعود عليك نفعه فى دين أو دنيا، فحياتك طيبة سعيدة، وإلا فالأمر بالعكس.

ومن أنفع الأمور لِطَرْدِ الْهَمِّ : أن توطن نفسك على أن لا تطلب الشكر إلا من الله ، فإذا أحسنت إلى من له حق عليك ، أو من ليس له حق ، فاعلم أن هذا معـاملة منـك مع الله ، فلا تبـالِ بشكر من أنعمت عليه كما قال تعالى في حق خواص خلقه :

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ، لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[1] .

ويتأكـد هذا في معاملة الأهل والأولاد، ومن قوى اتصالك بهم ، فمتى وطنت نفسك على إلقاء الشر عنهم ، فقد أرحت واسترحت .

ومن دواعي الـراحـة : أخـذ الفضـائـل والعمـل عليها بحسب الـداعي النفسي الـذي يقلقك ، وتعود على أدراجك خائباً من حصول الفضيلة ، حيث سلكت الطريق المتلوي ، وهذا من الحكمة ، وأن تتخذ من الأمور الكدرة أموراً صافية حلوة وبذلك يزيد صفاء اللذات وتزول الأكدار .

اجعـل الأمـور النـافعـة نصب عينيك واعمل على تحقيقها ، ولا تلتفت إلى الأمـــور الضـارة لتلهـو بذلـك عن الأسبـاب الجـالبـة لِلْهَمِّ والحَزَن ، واسْتَعِنْ بالراحة ، وإجماع النفس على الأعمال المهمة .

ومن الأمور النافعة : حَسْمُ الأعمال في الحال والتفرغ في المستقبل لأن الأعمال إذا لم تحسم ، اجتمع عليك بقية الأعمال السابقة ، وانضافت إليها الأعمال اللاحقة فتشتد وطأتها ، فإذا حسمت كل شيء بوقته أتيت الأمور المستقبلة بقوة تفكير وقوة عمل .

---

(١) الإنسان / ٩.

وينبغي أن تتخير من الأعمال النافعة الأهم فالأهم، وميِّزْ بين ما تميل نفسك إليه، وتشتد رغبتك فيه، فإنَّ ضِدَّه يحدث السآمة والملل والكدر.

واستعن على ذلك بالفكر الصحيح والمشاورة، فما ندم من استشار، وادرس ما تريد فعله درساً دقيقاً، فإذا تحققت المصلحة وعزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين[1].

تمت هذه الرسالة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران/١٥٩].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول: «ما ندم من استخار الخالق، وشاور المخلوقين، وثبت فى أمره، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران/١٥٩] وقال قتادة رضى الله عنه: «ما شاور قوم يبتغون وجه الله إلا هدوا إلى أرشد أمرهم» الوابل الصيب /٩٤ ضمن مجموعة الحديث.

منظومة فى السَّيْرِ إلى الله والدار الآخرة★

للشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله

سَعِدَ الَّذينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَىٰ
وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوانِ
فَهُمُ الَّذينَ قد أخلصوا فى مَشْيِهِم
مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الإيمانِ
وَهُمُ الذين بَنَوا منَازِلَ سَيْرِهِم
بينَ الرَّجا والخوفِ للدَّيَّانِ
وَهمُ الذين ملا الإلهُ قلوبَهُم
بِوُدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمٰنِ
هم الذين قد أكثروا مِنْ ذِكْرِهِ
فى السِّرِّ والإعلانِ والأَحيانِ
فِعْلُ الفرائضِ والنَّوافِلِ دأْبُهُم
مع رؤيةِ التَّقصيرِ والنُّقْصانِ
صبروا النفوسَ على المكارهِ كلِّها
شوقاً إلى ما فيه مِن إحسانِ
نزلوا بمنزلةِ الرِّضىٰ فَهُمُ بها
قد أصبحوا فى جُنَّةٍ وأمانِ
شكروا الذى أولىٰ الخلائقَ فَضْلَهُ
بالقلبِ والأقوالِ والأركانِ

(★) وللناظم شرح للمنظومة طبع ضمن كتاب «المجموع» لمؤلفاته.

صَحِبــوا التّـوكّـلَ فى جميـع أمـورهـم
مع بذلِ جهــدٍ فى رِضــى الـرّحمٰنِ
عَبَـدُوا الإلـهَ علىٰ اعتقـادِ حضـورهِ
فتـبــوءوا فى منــزلِ الإحـســانِ
نَصحــوا الخليقــةَ فى رضىٰ محبـوبِهم
بالـعـلمِ والإرشـــادِ والإحســـانِ
صَحِبــوا الخــلائقَ بالجســومِ وإنّــما
أرواحُــهُــم فى منــزلٍ فوقــانــى
ألا بالله دعوت الخلائق والمشاهد كلها
خوفــاً على الإيــمانِ مِن نقــصــانِ
عزفــوا القلوبَ عن الشــواغِـلِ كلّهـا
قد فرّغــوهــا من سوى الــرحمــانِ
حــركــاتُهم وهمــومُهم وعـــزومُهم
للهِ لا للخَــلْقِ والــشـــيطــانِ
نِعْمَ الــرّفيقُ الطــالبُ السُّبُــلِ التى
تُفـضى إلى الخــيراتِ والإحســانِ